في رحاب الله

عبد الله بن عمرو

رضي الله عنه

متعة العبادة لا يعرفها إلا من أداها بحب وإخلاص

« يا ولدي.. لا تبالغ في العبادة إلى هذا الحد، فليست الحياة كلها عبادة ».

قالها عمرو بن العاص لولده عبد الله في انزعاج، وقد بدا أنه لم تكن المرة الأولى التي يحدثه فيها في هذا الأمر.

كان عبد الله قد سبق أباه عمرا إلى الإسلام..

ومنذ إسلام عبد الله، وهو يتميز بشغفه الشديد للعبادة، بصورة كان يرى أبوه عمروأنه مبالغ فيها إلى حد كبير.

كان عبد الله يتعبد وكأنه يعيش في عالم آخر، لا يريد أن يخرج منه..

كان يصوم تقريبا كل يوم، وكان ينسجم مع آيات الله، وينتعش بنفحات الإيمان التي تهز قلبه ووجدانه، وهو يختم القرآن كله في ليلة واحدة.

نعم..في ليلة واحدة.

إنها قدرة هائلة على التعبد، وشخصية فريدة وفذة في مواصلة العبادة ساعات طويلة، في الليل والنهار.

ربما كان عبد الله يريد أن تتضاعف ساعات اليوم، ليملأه بأنواع أخرى من عبادات تزيده قربا من ربه.

كانت علاقة عبد الله بالعبادة ليست علاقة تكليف وأداء، بل علاقة تعايش ومحبة وانسجام.

كان يشعر مع الصلاة، بسعادة تنتقل من قلبه الرقيق إلى كل ذرة في جسده، وكانت آيات الله تشعره أنه في حديث خاص مع ربه، فكيف يتركه ويترك حديثه العذب الجميل.

ويحميه الصيام في كل لحظة من مجرد التفكير في إثم، أوالهم بمعصية، حرصا على قبوله ممن أحب.

وربما كان لا يقطع هذا التعبد المتواصل، إلا خروج في غزوة أوأمر خطير.

كانت علاقة عبد الله بن عمرو بالعبادة علاقة شوق ومحبة، ومصدرا للسعادة وهدوء النفس وصفائها.

كل هذا جميل ومطلوب..

إلا أن بعدا مهما في الإسلام، كان خافيا على عبد الله بن عمرو..

التوازن..

إن الإسلام دين توازن، لا يريد أن يطغى فيه جانب على آخر؛ لأنه في الأصل دين حياة، ربط فيه الله العمل بالثواب، فجعل العبادة مرتبطة بالنية، فاتسع نطاقها لتشمل كل جوانب الحياة، ما

دامت أن النية خالصة لله.

وهذا ما أقلق أباه عمرو بن العاص، والذي كان هناك فارق كبير بين شخصيته، وشخصية ابنه عبد الله.

وكان عمرو محقا فيما نصح به ابنه كثيرا، وكان الحل الأخير لديه، أن يأخذه من يده ويذهب به إلى رسول الله ﷺ، ليسدي إليه النصيحة بنفسه..

وبطريقة الرسول ﷺ اللطيفة في النصيحة، والتي تتسم بالتدرج والحوار والمنطق، قال لعبد الله وهو يبتسم في تعجب:

«أخبرت أنك تصوم النهار، ولا تفطر، وتصلي الليل ولا تنام.. فحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام.. ».

قال عبد الله في حماسة:

- إني أطيق أكثر من ذلك..

قال النبي ﷺ:

«فحسبك أن تصوم من كل جمعة يومين».

قال عبد الله وكأنه يخشى أن يسلب منه أحد شيئا:

- فإني أطيق أكثر من ذلك..

قال رسول الله ﷺ:

«فهل لك إذن في خير الصيام، صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما».

وعاد الرسول ﷺ يسأله قائلا:

«وعلمت أنك تجمع القرآن في ليلة، وإني أخشى أن يطول بك العمر، وأن تمل قراءته..

اقرأه في كل شهر مرة..

اقرأه في كل عشرة أيام مرة..

اقرأه في كل ثلاث مرة..

ثم قال له:

إني أصوم وأفطر..

وأصلي وأنام.

وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ثم أخذ الرسول ﷺ يده ووضعها في يد أبيه عمرو، وقال له وهو ينظر إليه في حنان:

«افعل ما أمرتك، وأطع أباك».

كانت وصية الرسول ﷺ واضحة تماما على مراجعة عبد الله في أسلوبه في الحياة، وطريقته في العبادة التي تصل به إلى حد المبالغة، والتي تحتاج إلى إعادة ترتيب الأمور قليلا..

لم تكن المسألة تحتاج أكثر من ذلك..

مجرد إجراء عملية اتزان بسيطة تعطي لكل ذي حق حقه.

وربما عزم عبد الله على التغيير كما أمره الرسول ﷺ..

إلا أنه من الواضح أن الشوق غلبه، والحنين إلى ذلك العالم الجميل قد شده تارة أخرى إليه.

وربما يكون هذا العالم الخاص، هوالذي عصمه من الاشتراك في أمر خطير كان على موعد معه، إلا بقدر محدود..

الفتنة الكبرى.

* * *

يقتل الخليفة عثمان بن عفان..

ويبايع المسلمون علي بن أبي طالب، ويرفض معاوية بيعة علي، ويحدث الصدام..

وتقوم الحرب..

وينقسم الصحابة إلى فريقين: فريق يؤيد عليا، وفريق يؤيد معاوية..

وفريق ثالث التزم العزلة والابتعاد كلية عن الساحة.

وكان من هذا الفريق الثالث.. عبد الله بن عمرو..

كانت طبيعته الرقيقة تدفعه إلى ذلك.

إلا أن موقف عبد الله بن عمرو، كان في غاية الحساسية والصعوبة.

فلقد وجد عبد الله أباه عمرا يؤيد معاوية تأييدا شديدا.. وذاك كان السبب الأول.

أما الثاني، فلأن عبد الله بن عمرو من داخله، كان يميل إلى موقف علي، لا معاوية.

وعانى عبد الله من هذين الأمرين كثيرا، اللذين تسببا له في كثير من القلق، كانا يدفعاه أكثر وأكثر إلى مسافات أبعد عن المشكلة، لينخرط في عالمه الخاص حزينا مهموما، يشكو إلى الله ويبتهل إليه بالدعاء.

وعندما حان وقت القتال، قال له أبوه عمرو في قوة:

- يا عبد الله.. تهيأ للخروج، فإنك ستقاتل معنا.

إلا أنه فوجئ بموقف عبد الله، والذي قال رافضا في حماسة وإصرار:

- كيف وقد عهد إلى رسول الله ﷺ ألا أضع سيفا في عنق مسلم أبدا؟

إلا أن أباه عمرو بن العاص (أرطبون العرب)، لم ليكن ليعدم الحيلة التي سيقنع بها ابنه..

فظل يردد له أن مهمتهم هدفها الرئيسي أن يثأروا من قتلة عثمان..

إلا أن عبد الله ظل على موقفه غير مقتنع بحجة أبيه، فألقى عمرو بورقته الأخيرة، والتي احتفظ بها في ذاكرته لسنين طويلة حتى جاء حينها..

عندها.. اقترب من ابنه ينظر في عينيه محملقا وهو يقول وكأنما يستدعي مشهدا من الماضي:

- أتذكر يا عبد الله، آخر عهد عهده رسول الله ﷺ حين أخذ بيدك فوضعها في يدي وقال لك: أطع أباك؟

وما إن سمع عبد الله هذه الجملة، حتى أطرق رأسه دون أن ينبس ببنت شفة.

وهنا.. طرق أبوه الحديد وهو ساخن، فنهض في قوة وهو يقول له بلهجة آمرة:

- فإني أعزم عليك الآن، أن تخرج معنا وتقاتل.

كان عبد الله في مأزق حقيقي، لا يعرف كيف الخروج منه..

وأخذته الحيرة يمينا ويسارا، ودارت الأفكار في رأسه باحثة عن حل، فلا تجد..

وأخيرا اهتدى عبد الله إلى حل، وجد فيه شيئا من راحة الضمير.

لقد قرر عبد الله أن يشارك في الحرب، ولكن.. دون أن يقاتل !

وبدأت المعركة..

ودخل عبد الله الحرب حاملا سيفه مضطرا، لا يحركه، ولا يقترب به من أحد.

إلا أنه كان طوال الوقت يستدعي مشهدا بعيدا، من سنين طويلة.

وكان بطل هذا المشهد هو عمار بن ياسر، والذي كان يقاتل في صف علي بن أبي طالب.

كان واقفا يومها.. يوم كان المسلمون يبنون مسجدهم في المدينة مع الرسول ﷺ..

ساعتها نظر الرسول ﷺ إلى عمار نظرة كأنه يتنبأ بشيء، وقال له في قلق:

«ويح ابن سمية.. تقتله الفئة الباغية ».

استرجع عبد الله المشهد جيدا، وترقب كما ترقب الكثيرون غيره نبوءة الرسول ﷺ، لتنكشف معها الفئة الباغية، ويستقر الجميع على رأي واحد.

وقتل عمار بن ياسر على يد جيش معاوية، لتنكشف الفئة الباغية ، ويهيج عبد الله بن عمرو ثائرا في جيش معاوية قائلا:

- أوقد قتل عمار..؟

وأنتم قاتلوه..؟

إذن أنتم الفئة الباغية..

أنتم المقاتلون على ضلالة.

ربما كان هذا الموقف من المواقف النادرة، أو ربما الموقف الوحيد، الذي شوهد فيه عبد الله ابن عمرو الهادئ الرقيق، ثائرا عنيفا غاضبا كأشد ما يكون الغضب.

وانطلق عبد الله بعدها وسط جنود معاوية، يكشف لهم الحقيقة، ويدعوهم إلى التراجع.

ووصل الخبر معاوية، والذي انزعج بشدة، ليأمر عمرو بن العاص بردع ابنه عما يقول..

وبكل غضب الدنيا، طلب معاوية استدعاء عبد الله وأبيه عمرو، واللذان أتيا على وجه السرعة، وعندها وقف معاوية قائلا لعبد الله في ثورة :

- ألا تكف عن جنونك هذا؟

قال عبد الله وهو ينظر إلى معاوية في حدة:

- ما أنا بمجنون، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية».

فقال له معاوية وهو يجز على أسنانه :

- فلم خرجت معنا إذن ؟

قال عبد الله وهو يبرر موقفه بطريقة لا تخفي حيرته آنذاك:

- لأن رسول الله ﷺ أمرني أن أطيع أبي، وقد أطعته في الخروج.

ثم تابع في إصرار:

- ولكني لا أقاتل معكم.

وبينما الحوار المتصاعد كان قد وصل إلى طريق مسدود، دخل على معاوية من يخبره بأن الجندي الذي قتل عمارا يستأذن في الدخول..

وقبل أن ينطق معاوية، التفت إليه عبد الله بن عمرو، في مزيج من السخرية والغضب قائلا:

- ائذن له، وبشره بالنار.

ظهر الغيظ على معاوية، وقد وصل إلى أشده وهو يلتفت إلى عمرو قائلا:

- أوتسمع ما يقول؟

وفي هدوء بالغ و ثقة متناهية، أنهى عبد الله حواره قائلا:

- ما قلت إلا الحق، وإن الذين قتلوا عمارا ليسوا إلا بغاة.

ثم التفت ناحية أبيه وهو يقول له لائما:

- لولا أن رسول الله أمرني بطاعتك، ما سرت معكم هذا المسير.

كان عمرو ومعاوية قد فقدا الأمل في إقناع عبد الله، والذي بدا مصرا على رأيه كما لم يكن في حياته، واتجه الاثنان بسرعة ليحلا المشكلة في أرض المعركة لإنقاذ الموقف.

وما أن تفقدا الجيش، حتى وجدا الجنود يرددون مقولة عبد الله بن عمرو..

ولجأ معاوية إلى حيلة أخرى يقنع بها الناس، وهي أن الفئة الباغية هي الفئة التي أتت بعمار بن ياسر ليقتل!

وانطلت الحيلة على الكثير، ونجح معاوية في أن يستأنف القتال من جديد.

لكن الحيلة لم تكن لتنطلي على عبد الله هذه المرة.

وانسحب عبد الله حزينا مكسورا، ليدخل عالمه الخاص مرة أخرى، ليبكي على ما حدث، وعلى ما فعل.

وظل يلوم نفسه لوما شديدا على انضمامه للمعركة، وأخذ يقول في أسى:

- ما لي ولصفين؟ ما لي ولقتال المسلمين؟

كان عبد الله في رعب من غضب الله، وهو الذي يتفانى في العبادة ليل نهار من أجل إرضائه.

وكان يعتذر لله بأنه خدع، وأنه ما فعل ما فعل، إلا طاعة لرسول الله ﷺ.

كان يريد أن يعتذر للجميع عما فعل..

وخصوصا الحسين بن علي رضي الله عنهما، الذي ظل لا يحدث عبد الله بعدها غضبا منه..

وفي يوم مر الحسين، ورآه عبد الله وهو جالس في مجلسه، فقال لمن معه في حنين واضح:

- أتحبون أن أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟

إنه هذا الذي مر بنا الآن.. الحسين بن علي.

وإنه ما كلمني منذ صفين..

ولأن يرضى عني، أحب إلي من حمر النعم.

إنها رقة قلب صنعها قيام الليل وقراءة القرآن، طيلة سنين وسنين.

ولقد قرر بعدها أن يحاول إصلاح الموقف ويعتذر للحسين..

ومع أخيه أبي سعيد الخدري، اتفق الاثنان على زيارة الحسين في بيته، ليسأله الحسين السؤال الذي كان جاثما على أنفاسه منذ زمن، قائلا له في لوم وعتاب:

- ما الذي حملك على الخروج مع معاوية؟

فأجاب عبد الله مبررا موقفه بكل جوارحه وهو يقول:

- ذات يوم شكاني أبي إلى رسول الله ﷺ وقال له:

إن عبد الله يصوم النهار كله، ويقوم الليل كله.

فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا عبد الله صل ونم.. وصم وأفطر.. وأطع أباك».

ولما كان يوم صفين أقسم علي أبي أن أخرج معهم، فخرجت..

ولكن والله، ما اخترطت سيفا، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم.

وأمام صدق عبد الله وإخلاصه الذي يعرفه الجميع، ويحبونه من أجله، زال التوتر بينه وبين الحسين، ليرتاح ضمير عبد الله إلى حد كبير.

إلا أن راحة عبد الله وسعادته التي لا يعرفها إلا هو، كانت دائما بين يدي الله، يقوم ليله وهو يناديه أن يطول ويطول..

في جنبات خلوته يتلو آيات الله، يسمعه بشغف، ثم يناجيه في سجوده.

وفي الثانية والسبعين من عمره..

ذهب عبد الله إلى ما أراد..

إلى لقاء انتظره منذ زمن بعيد..

أخيرا.. تحدد اللقاء بينه وبين ربه..

أخيرا.. جاء الموعد.

وهناك.. سيطول اللقاء إلى ما شاء الله.

* * *

دروس وتحليل

١ - الإسلام دين متوازن، لا ينبغى أن يطغى فيه جانب على الآخر (عمرو بن العاص يشكو للرسول ﷺ من مبالغة ابنه عبد الله في العبادة).

من الخطأ والخطر أيضا، فهم الإسلام وتطبيقه بصورة غير متوازنة، فلقد أنزل الله الإسلام ليكون دين حياة؛ لذا فهو يشمل مظاهر الحياة جميعا، ولا يبالغ في جانب على حساب جانب آخر، حتى لو كان هذا الجانب الذي نبالغ فيه هو جانب العبادة، فالإسلام دين عبادة وعمل وعلم وعلاقات اجتماعية ورياضة وثقافة واهتمام بالمواهب، وكل ما يلزم أن تقوم به الحياة.

وهذه الشمولية، هى التى تعطى الإسلام رسالة العالمية، وتجعله صالحا لكل زمان ومكان، ولكل الناس مهما كانت عاداتهم وتقاليدهم.

إن علم مصر المقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم باللون الأحمر وآخر بالأبيض وثالث بالأسود، لو قمنا بزيادة مساحة أي لون فيه على الثلث ونظرنا إليه، لن نقتنع بأنه علم مصر، وسنقول ساعتها: إنه علم لدولة أخرى لا نعرفها.

ونحن عندما نبالغ في جانب من جوانب الإسلام عن جانب آخر، سيكون ديننا غير الإسلام الذي نعرفه، والذي أرسله الله إلى رسوله ﷺ، وجاهد ثلاثة وعشرين عاما، من أجل أن يبلغه إلينا صحيحا كما أنزل.

٢ - الاجتهاد في العبادة مطلوب وضروري، ولكن بخطوات محسوبة حتى لا تمل النفس وتجهد، فتنتكس عباديا (الرسول ﷺ يطلب من عبد الله بن عمروأن يخفف من عبادته شيئا حتى لا يمل).

ربما حدث هذا الموقف لكثير من الملتزمين دينيا في بداية الالتزام، ففى بداية الالتزام يكون هناك حماس جارف للعبادة، فيبدأ حديث الالتزام في وضع برنامج في منتهى القسوة بعد أداء فرائض الصلاة والسنن: حفظ نصف جزء يوميا، قيام ساعتين في اليوم، صيام يوم وإفطار يوم...إلخ.

هذا الحماس جميل ومطلوب، وخصوصا في بداية الالتزام، لضرورة تطهير النفس من تاريخ طويل من المعصية، ولكن بشرطين:

الشرط الأول: التدرج.. لابد من التدرج في هذا البرنامج، حتى يصل الشخص إلى هذا المستوى الفريد من التعبد، وعدم التدرج يعرضه للملل والنكسة التعبدية، والتى ستصيبه بمجرد فقدان جرعة الحماسة العالية التي كانت لدية في البداية، وسيجد نفسه غير قادر على القيام بعشر ما كان يقوم به.

والتدرج يتيح للنفس التدريب المتدرج على تحمل مشقة العبادة، وبمرور الأيام تكون زيادة الحمل التعبدي منطقية ومقبولة، وبعد مرور وقت معين من هذا التدرج، تصل النفس إلى درجة

التعود، وعندئذ، يصبح من الصعب أن ترتد عن عاداتها التي بدأت في التطبع عليها.

الشرط الثاني: عدم إهمال جوانب أخرى بسب العبادة.. فلا ينبغى أن يضع المسلم برنامجا قاسيا في العبادة، وتكون النتيجة الفشل الدراسى، أو ضعف علاقته بوالديه وإخوته وزوجته وأبنائه، والتقصير في واجباته نحوهم، أو الإهمال في العمل اليومى الذي أنعم الله به عليه، ليكون سببا في رزقه، أوأن تؤدي إلى العزلة عن الناس، وعدم التفاعل معهم..إلخ.

إن الإسلام وضع العبادة وسيلة وليست هدفا، وعندما نحول الوسيلة إلى هدف، تختل الموازين وتضيع فرص الوصول إلى الأهداف الحقيقية.

٣- الحياة بالعبادة والحياة بأغاني الكاسيت (عبد الله بن عمرو كان يحيا بالعبادة ويعشقها).

كان عبد الله بن عمرو شابا في العشرينات من عمره، شاب يافع كله حماس وطاقة وعنفوان، ووجد سعادته في الوقوف بين يدي الله ساعات طويلة في صلاته المفروضة وقيام الليل، ووجد راحته في الشعور بألم الجوع وهو صائم إرضاء لله، ووجد فرحته في حديث الله وهو يتلو آيات القرآن الكريم، حتى وصل به الحال إلى أنه كان يختمه كل ليلة..

إن الحزن ليتملك الواحد منا، وهو يجد سعادة الشباب اليوم في إدمانه للأغاني الهابطة، التى فرض على الجميع أن يسمع صخبها في كل مكان، وأصبح المرء منا يشك في أن الشباب يستطيع أن يعيش بدون هذه الأغاني، فلقد أصبحت في كل مكان، في شرائط الكاسيت وأجهزة الكمبيوتر وأجهزة المحمول، في السيارة والتاكسي، والمطاعم..إلخ.

لقد أصبحنا شعبا يغني ويرقص، على كلمات ليس لها معنى ولا هدف..

وأصبحت حياة الشباب بدون أغان ضربا من المستحيل..

وأصبح الفارق بيننا وبين جيل عبد الله بن عمرو.. شاسعا إلى حد كبير.

* * *